فضيلة العفو

لقد كانت العقيدة الإسلامية فى حياة المسلمين، هى النافذة التى يطلون منها على العوالم الحية. كما كانت العقيدة ذاتها هى المنظار الذى ترى بواسطته كافة الحقائق.

والإسلام دين يستهدف كمال النفس، وجمال الذات، وسمو الوسيلة وجلال الغاية. والمنهج الحق الذى يؤْتى ثماره ويعطى نتائجه لابد أن تتوفر له عناصر رئيسية لا غنى عنها من التخطيط والمرونة والتدرج، ثم الدعوة إليه والترغيب فيه، والحث عليه، ووجود القدوة التى تطبقه وتتحلى به، وتضرب أكمل الأمثال فى توخيه، وتعطى أمثل النتائج فى اعتناقه والحرص عليه.

والإسلام الحقيقى اشتمل على هذا المنهج الحق بكل شعبه وعناصره ومقوماته ووسائله. وتبدو هذه السمات وضيئة ظاهرة، وجَلِيَّة واضحة، فى كل جانب من جوانبه، وزاوية من زواياه، فى عقيدته وشريعته وفى كل أحكامه وأخلاقه ونظامه. . لأن الإسلام نظام للحياة الإنسانية، الفاضلة المطمئنة المستقرة. نظام لحياة الفرد والمجتمع معاً، أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى ولكن لها قيادة. وتوجيه الإسلام يقوم على تنبيه إرادة الفرد ليأْخذ زمام الأمر بيده، ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال.

والعفو فى الإسلام يبرز إلى حد كبير سمات المنهج الإسلامى فى قيادة البشرية وتوجيههم، وضبط سلوكهم، وربطهم بالمثل العليا، والصلات الرفيعة، والخلق الرشيد. . والراغب الأصفهانى فى مفرداته أدار مادة (عفو) على معنى القصد فى تكلف لا يسهل الاطمئنان إليه، مع أن الحسى فى هذه المادة: العفو. والعفا: الأرض الغفل التى لم توطأْ ولا أثر لأحد فيها بملك. وأرض عافية: لم يرع نبتها. والماءُ العافى: الذى لم يطأْه شىءٌ يكدره، ومن هذه المعانى الحسية

الموحدة، ومن أشباه لها فى الحيوان وغيره، تقال معان مادية واضحة القرب، مثل: عفا النبت والشعر وغيره: كثر وطال. وعفا القوم كثروا، ومن هذا العافية بمعنى السلامة، كما يقال العفو من المال: ما طاب وكثر وما فضل ولم يشق على صاحبه. والعفو من أخلاق الناس: السهل الميسر، والعفو ما أتى بغير مسألة، وأعفى إذا أنفق العفو من ماله. وعفا كدعا عفواً: تجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، فهو عاف وعفو، والعفو من صفات الله تعالى كما أنه بملحظ آخر فى الأرض الغفل يقال عفت الديار وعفتها الريح. أى خلت ودرست. وقد ورد فى القرآن الكريم العفو من المال والخلق، والعفو من التجاوز وترك العقاب قال تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]. ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لإرادة العموم أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ﴿**الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾[2].. والعفو ترك العقاب على الذنب، والصفح الاعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

يقول الأستاذ الإمام فى المنار: وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل للقوى الجاهل.

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[3]. ويرى العلماء أن هذه الآية تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات. فقوله: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل فى قوله ﴿**وَأْمُرْ**

(١) البقرة: ١٠٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) الأعراف: ١١٩.

بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام، وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التخلق يالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازلة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة. قال جابر بن سليم أبو جرى: ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلونى على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت إنا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاءُ، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها. قال: ادن «ثلاثا» فدنوت: فقال: أعد على. فأعدت عليه. فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلق أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى، وإن امرؤٌ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجراً، وعليه وزراً، ولا تسبن شيئاً مما خولك الله تعالى». قال أبو جرى: فوالذى نفسى بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيراً. ويروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

وروى أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: ما هذا يا جبريل[1]؟ فقال: لا أدرى حتى أسأل ربى فذهب فمكث ساعة. ثم رجع فقال: «إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك وتصل من قطعك» وقد نظم بعض الحكماء هذه المكارم فقال:

مكارم الأخلاق فى ثلاثة	من كَمُلَت فيه فذلك الغنى
إعطاءٌ من تحرمه ووصل من	تقطعه والعفو عمن اعتدى

وهكذا فى كل توجيه، أوامر، أو نهى، تبرز سمات المنهج الإسلامى فى قيادة البشرية. الأمر الذى أثمر أطيب الثمرات، وأعطى أحسن النتائج، ووضع فى العفو بين يدى الإنسانية نماذج وأمثلة يشار إليها بالبنان، غدت على بساط الواقع

(١) الإشارة إلى الآية السابقة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

أحداثا لا تبارى، وظلت فى فم التاريخ، حديثاً لا يمل.

ولا تزال متألقة جديدة وطريفة، مثار جاذبية، وانبهار وتعلق، لدى علماء الأخلاق، وحكماءِ التربية والمشتغلين بعلوم النفس والاجتماع، رصداً وتجريباً وتوجيهاً.

قال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل» فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. فهذا من الجاهلين فقال عمر: صدقت فكأنما كانت نارا فأُطفِئت.

وتاريخ الرعيل الأول من المسلمين ومن تبعهم، تاريخ زاهر، مليءٌ بأمثلة الهدى. ومن أفضل ما حباهم به الإسلام أنه منحهم الحزم والحكمة، وحباهم بالاتزان والانضباط واعتدال النفس، واتساق العواطف، والقدرة على تقديم الحلم على الغضب، والعفو على الانتقام، والإحسان إلى من أساءَ على العقوبة له.

قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ والغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التى يجدها الإنسان من فوران دم قلبه. ،ويقال الغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال، أو المعنوية كالشرف، فيزعجها إلى التشفى والانتقام، ومن أجاب داعى الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفى بالحق، بل يتجاوزه إلى البغى، فلذلك كان من التقوى كظمه.. ويرى كثير من الباحثين أن الغيظ هيجان الطبع عند رؤْية ما ينكره.

وأصل الكظم مخرج النفس، والغيظ وإن كان معنى له أثر فى الجسم يترتب عليه عمل ظاهرة، فإنه يثور بنفس الإنسان حتى يحمله على مالا يجوز من قول أو فعل. فلذلك سمى حبسه وإخفاءُ أثَره كظماً.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ والعفو عن الناس: هو التجافى عن ذنب المذنب منهم، وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها،

وكرم المعاملة قَلَّ من يتبوأُها، فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ، إِذ ربما يكظم المرءُ غيظه على حقد وضغينة.

وهناك مرتبة أعلى منهما هى ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالإِحسان وصف من أوصاف المتقين ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى، ويروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديداً، فهم بالانتقام منه فقال الغلام: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال: كظمت غيظى. قال الغلام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال: عفوت عنك، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهب فأنت حر لوجه الله.

ولا شك أنه لا شىءَ كالعفو يقرب المسافات، ويئد الخصومات ويستل السخائم، ويكون عنواناً على سماحة النفس، وسعة الصدر وبعد النظر، وأعظم ما يبدو من أثر العفو ونتائجه، هو ما يمس شئون الأُسر، والبيوت من زواج وطلاق، وما يمس حياة الناس والأُمة من قصاص ودماءِ، فمن عفا فى مجال الأُسرة وما يتعلق بأفرادها من حقوق كان أقرب إِلى تقوى الله وخشيته، وكان أعرف بما ينبغى أن يشيع بين الأُسرة من فضل وسمو نبل، ومن عفا فى مجال القصاص كان أقرب إِلى رحمة الله.

وفضيلة العفو من أنبل الفضائل، وأسمى الخلال التى دعا إِليها الإِسلام لما لها من خطير الأثر، وجليل النتائج فى حياة الفرد والجماعة والأُمة. من حيث كونها تئد كل نزاع وتقبر كل خلاف، وتغلق الباب تجاه العداوات أن تستفحل، والفتن أن تشرئب... وأثر العفو فى نفس صاحبه له أكبر الوقع وأحلى المذاق وذلك حقاً هو الانتصار الذى دونه كل انتصار. والعفو فى نفس المسىءِ له تأثيره العجيب والذى ينعكس على أحاسيسه ومشاعره تجاه جرمه وخطيئته ومن اقترف الذنب فى حقه، فيطبع موقفه حياله بكل صور الأسف والندم على ما فرط منه.

إِن العفو يعيد إِلى العلائق حياتها وحيويتها وجدتها، ويفعل فى النفوس مالا تفعله السيوف، فإذا البعيد قريب قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

وللعفو أثره الحيوى فى حياة الناس، وحضارة الإنسانية، والحاضر والمستقبل فكم أحيا من نفوس، وأيقظ من همم، وعدل من أسلوب وسلوك، ولا شيءَ كالعفو أسرع بالإنسان إلى عفو الله ومغفرته. حيث ينعم برحمته ونعيمه ورضوانه. ولا يصنع امرؤٌ فى الدنيا خيراً ولا يقدم مؤْمن صنيعاً إلا ويجد الجزاءَ عليه جزيلا فى الآخرة يأتيه وهو أحوج ما يكون إليه. قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعطى من حرمه، ويصل من قطعه».

ألا ما أروع العفو، وما أسرع آثاره، وما أعظم نتائجه على حياة الفرد والأُسرة والمجتمع والأمة، فى الدين والدنيا والأخرة. إن الإسلام دين له فى كل شأن من شئون الحياة، والأحياءِ، تنظيم وتوجيه تتقاصر دونه عقول المفكرين والفلاسفة، والحكماء.

إن الإسلام عقيدة فاعلة ومصدر الفاعلية فى عقيدة الإسلام كان الأُس الفكرى والروحى، لإطار عملى تطبيقى يحدد لإنسان العقيدة المؤْمن بها، والمؤْتمن على سيادة فكرتها وتسويد دعوتها أُسلوب تعامله مع الآخرين.

والعفو فى الإسلام موقف عملى يقع فى الصميم من مهمة المسلمين والموقف العملى لا يكون عملياً مالم يحكم بحركة الإنسان.

* * *